العدد العشرون
2003

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة تصدر سنويًا

1371 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2003 مسيحي

الفقيه المالكي ابن عظوم القيرواني
وكتابه (برنامج الشوارد)

الأستاذ: شعبان محمد عكاش
عضو هيئة التدريس بكلية الآداب والعلوم - الجماهيرية الليبية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه وسلم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الحديث عن عالم من علماء الفقه المالكي المغمورين لأمر مهم، وخاصة إذا لم يكن ممن حالفهم الحظ ولقوا الفرصة سانحة للشهرة والذيوع بين أهل العلم عامة، وأهل الفقه خاصة. فكم من مُقِلّ اشتهر، وكم من مُكْثِرٍ لم يعرف بين أهل اختصاصه، فما بالك بين عامة المسلمين!

في هذه الدراسة التي نحن بصددها سنحاول أن نتعرف على أحد أعيان المذهب المالكي، في سيرته وفي فكره، كما سنقوم بإلقاء الضوء على أحد

مصنفاته الفقهية المتميزة. وبذلك نكون قد شاركنا في إبراز أحد العلماء المغمورين والتعريف به، والإشادة بمساهماته في الحياة الثقافية ضمن بناء صرح الحضارة الإسلامية العريقة.

لقد كان ابن عظوم القيرواني ـ رحمه الله تعالى ـ من أفذاذ المذهب المالكي في البلاد التونسية، تصدى للإفتاء والتصنيف، واشتهر ببلده، حتى قيل بأن علماء عصره كانوا عيالاً عليه. وكان يعد شيخ الفقهاء بعد ابن عرفة في تونس. ويعد أيضاً من المحققين للفتيا والنوازل.

وتهدف هذه الدراسة إلى:

أولاً: المشاركة في التعريف بأحد علماء المذهب المالكي الأفذاذ.

ثانياً: محاولة إظهار القيمة الجليلة لمصنفات ابن عظوم القيرواني.

ثالثاً: إبراز كتاب «برنامج الشوارد» الذي يعد أسلوباً متطوراً في الدراسة، ومنهجاً جديداً لتقريب الفقه وربطه بالواقع المعيش.

وإذا ما أردنا تحقيق هذه الأهداف لا بد لنا من التمهيد لهذه الدراسة بلمحة موجزة عن الحالة السياسية والثقافية السائدة في عصر ابن عظوم القيرواني.

أولاً ـ الحالة السياسية:

لقد عاش ابن عظوم القيرواني في البلاد التونسية خلال القرن العاشر الهجري ومطلع القرن الحادي عشر. وكانت هذه الحقبة بالنسبة لتونس عصر ظلمات سياسياً وعلمياً. فقد سادت الفوضى والاضطرابات الشديدة مختلفة الأسباب، التي منها أن الدولة الحفصية التي عاشت أكثر من ثلاثة قرون صارت تلفظ أنفاسها الأخيرة بسبب النزاع والخلاف الحاد الذي دبّ بين سلاطينها وعجل بنهايتها. كما كانت الدولة التونسية قد أخذت في التدهور والضعف الشديد مما جعل الجو سانحاً لنشوب الثورات في كل مكان، وهذه تعد عاملاً مهماً في انعدام الاستقرار وانتشار الاضطرابات في البلاد. وكذلك الإسبان الذين جاءوا في بادئ الأمر انتصاراً لتونس ودفاعاً عنها، قد عتوا في الأرض فساداً

بالقتل والتدمير والنهب والسلب للأموال والممتلكات ـ كما جاء في كتاب تونس العربية ص85 وغيره ـ حيث أصبحت تونس مستعمرة إسبانية تحت إمرة أمير حفصي. وبقيت البلاد التونسية بعد ذلك مسرحاً للفتن والثورات تتنازعها إمبراطوريتان هما الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الإسبانية. وانتهى هذا النزاع بانتصار الإمبراطرورية العثمانية وطرد الإسبان من تونس عام 1574م، وتم تنظيم البلاد التونسية على وتيرة الولايات العثمانية الأخرى، وبما يتناسب مع حالة البلاد. فاستقرت الأوضاع شيئاً ما إلا أنه كانت النزاعات والفتن تقع حيناً بعد آخر، غير أن الاستقرار كان هو السائد زمن العثمانيين مقارنة بما كان سائداً قبلهم.

ثانياً ـ الحالة الثقافية والفكرية:

تبين لنا أن الظروف السياسية كانت تتسم بالنزاع المسترسل بين الإسبان والحفصيين والأتراك العثمانيين، وتبادلهم احتلال المناطق المختلفة بالبلاد التونسية، حتى إن الناس كانوا يفرون منها محافظة منهم على حياتهم وشرفهم، إلا أن غلبة الأتراك العثمانيين على الإسبان أدخلت على النفوس الطمأنينة والارتياح.

ومن خلال ما سبق نعلم أن الحركة العلمية في هذه البلاد أصيبت بنكسة خطيرة حيث رحل عن البلاد العديد من العلماء، فخربت مراكز العلم وهدمت المساجد وأحرقت خزائن الكتب وديست الكتب والمقدسات غير أنه على الرغم من كل هذا لا يمكننا أن نقول إنها كانت خالية من العلم والعلماء وإنما هاجر علماؤها وتفرقوا داخل البلاد وخارجها توقياً من الاضطرابات، طيلة نهاية الدولة الحفصية والاحتلال الإسباني وأوائل العهد العثماني. وما إن استتب النظام واستقرت الأمور حتى رجع العلماء وعادت الحركة العلمية إلى ما كانت عليه من النشاط وبعثت الحياة فيما اندرس منها.

ولقد تأثرت الحياة الفكرية بتيارات ثقافية مختلفة ساهمت في نشر العلوم الدينية وإحيائها، وأهمها: التيار التركي العثماني. والتيار الأندلسي. بالإضافة

إلى الأصالة التونسية. وقد مثل هذا التيار التونسي الأصيل عائلات نذكر منها على سبيل المثال:

عائلة الرصاع، وعائلة البكري، وعائلة فتاتة، وعائلة الشريف، وعائلة عظوم ـ التي منها ابن عظوم القيرواني موضوع الدراسة ـ وكذلك عائلة العامري، وعائلة الغمّاد، وعائلة المسراتي، وعائلة سويسي وغيرها.

وبالإضافة إلى التيار العثماني والتيار الأندلسي والتيار التونسي الأصيل هناك تيارات أخرى منها: التيار المشرقي الذي استجلبه العلماء التونسيون عند سفرهم للمشرق من أجل الحج أو طلب العلم. وغالب أمر علماء تونس عدم الاكتفاء بما تلقوه عن مشايخهم بتونس، وسفرهم للأخذ وطلب الإجازة من أشهر علماء مصر وغيرها. وكذلك لا يسوغ لنا أن ننسى التيار المغربي التصوفي الذي يمثله المغاربة المتصوفة المقيمون بتونس. وينظر في ذلك كتاب «الحلل السندسية في الأخبار التونسية» 1/ 48 وما بعدها، وكذلك ذيل بشائر أهل الإيمان ص22 وما بعدها.

وإجمالاً للقول تجدر الإشارة إلى أنه، بالإضافة إلى هذه التيارات آنفة الذكر، هناك المراكز الثقافية التي لعبت دوراً مهماً في نشوء الحركة الفكرية وتطورها في البلاد التونسية. ومن أشهر هذه المراكز صفاقص وجربة وزغوان وباجة والقيروان عاصمة العلم منذ الفتح حيث كانت بها حركة علمية نشيطة. وقد اشتهر من علمائها آل عظوم الذين من بينهم الشيخ موضوع الدراسة.

ولا يفوتنا ذكر مدينة تونس التي كانت منارة للعلم وأعلى مراكزه وأبعدها شهرة من غيرها. لما امتازت به من مدارس ومساجد، أعظمها الجامع الأعظم ـ جامع الزيتونة ـ الذي ضم نخبة ممتازة من رجال العلم، ذاعت شهرتهم ورحل إليهم الناس من أقصى البلاد للأخذ عنهم، ولقد حافظ التعليم في العهد التركي على نفس المراحل التي كانت موجودة. حيث يتعلم الطفل من «الكتّاب» مبادئ الكتابة والقراءة وقراءة القرآن وشيئاً من العلوم الشرعية والعربية. وعندما يحفظ الطالب القرآن الكريم يبارح «الكتّاب» لمتابعة دروس الجامع والمدارس والزوايا.

ونظرة عامة للتراجم التي ذكرها حسين خوجة في كتابه «ذيل بشائر أهل الإيمان»، والكتب التي ذكرها ونسبها لأصحابها، تعرفنا أن هذا العصر تكاثرت فيه التآليف في الفنون المختلفة وتنوعت، وهي جديرة بأن تدرس وتحقق؛ حتى تبرز من خلالها ملامح الحياة الفكرية في هذا العصر بالبلاد التونسية، وتعم الفائدة بما تحويه هذه المصنفات.

ومن خلال هذه اللمحة عن الحياة الثقافية والفكرية نصل إلى استنتاج أن هذه الحقبة، على الرغم مما فيها من انتشار للفوضى وحالة انعدام الاستقرار، فإن مراكز العلم والثقافة والفكر واصلت جهودها من أجل إشعاع نورها على البلاد التونسية، وأدّىٰ رجال العلم والفكر دورهم الموكل إليهم بكل فاعلية ونشاط، مساهمة منهم في الحياة الثقافية وبناء صرح الحضارة الإسلامية.

وبعد هذه المقدمة وهذا التمهيد باللمحة الموجزة عن الحياة السياسية والثقافية. سنقوم بالولوج إلى صلب موضوع الدراسة، وذلك من خلال خطة سنقسم فيها الدراسة إلى مبحثين وهما:

المبحث الأول: التعريف بابن عظوم.

المبحث الثاني: التعريف بكتابه «برنامج الشوارد».

المبحث الأول

التعريف بابن عظوم

وسأتناول في هذا المبحث الموضوعات التالية:

اسمه ـ ميلاده ـ نشأته وأخلاقه ـ أسرته العلمية ـ شيوخه ـ رحلاته ـ مكانته العلمية وثناء العلماء عليه ـ العوامل التي ساعدت على نبوغه ـ تلاميذه ـ أولاده وأحفاده ـ آثاره العلمية ـ وفاته.

اسمه:

يترجم ابن عظوم لنفسه في مقدمة كتابه برنامج الشوارد[1] وكذلك في

(1) برنامج الشوارد مخ 2/ 1 ـ أ، ب.

خاتمة كتابه الأدلة المحكمة فيذكر أنه أبو القاسم بن محمد مرزوق بن عبد الجليل بن محمد بن عيسى بن أحمد بن عبد العظيم بن أبي بكر بن عياش بن فندار المرادي القيرواني. عرف بابن عظوم القيرواني[2].

أما عن كنيته: فثبت من خلال مؤلفاته المخطوطة أن كنيته «أبو الفضل» وهو المعتمد عند من ترجم له[3]. أما لقبه: فقد كان يلقب بـ«ابن عظوم» وهناك من يذكره «عظوم»[4] وينتمي ابن عظوم إلى بطن مراد إلى بني هلال[5].

ميـــلاده:

ولد ابن عظوم بالقيروان وبها نشأ، وللأسف لم أقف على أي مصدر يحدد تاريخ ولادته بصفة قطعية، ويرجح أن يكون من مواليد العقد الرابع من القرن العاشر الهجري؛ لوجود بعض القرائن التي تؤيد ذلك، غير أنها لا تنهض لأن تكون أدلة تثبت ذلك أو تنفيه[6].

نشأته وأخلاقه:

لا يمكن أن نحيط بجوانب هذه الجزئية بشكل كامل؛ وذلك للعوز في المصادر التي تغطي هذا الجانب، غير أنه يمكننا القول إنه نشأ بالقيروان مكان ولادته وعاش بها بدايات عمره وتعلم بها، وكانت أسرة ابن عظوم التي عاش في كنفها أسرة معروفة بانتسابها للعلم وولاية المناصب الدينية من قضاء وفتوى وإشهاد[7].

---

(2) نقلاً عن أوضاع إيالة تونس العثمانية ص5.

(3) بروكلمان/ ملحق 2/ 653.

(4) رضا كحالة/ معجم المؤلفين 8/ 124.

(5) أوضاع إيالة تونس العثمانية ص5.

(6) ومن هذه القرائن أنه أخذ ـ كما هو ثابت ـ عن جده الأدنى الشيخ عبد الجليل بن محمد بن عيسى بن عظوم صاحب تنبيه الأنام المتوفى سنة 960هـ ومنها أيضاً تصدى للإفتاء سنة 982هـ (ينظر ابن عظوم/ الأجوبة العظومية 1/ 1 نقلاً من أوضاع إيالة تونس العثمانية ص7.

(7) ينظر كتاب العمر ص815.

وخلاصة القول إن أبا القاسم ابن عظوم نشأ في محيط عائلي غلبت عليه الكتب والوثائق والاشتغال بالمعرفة فحق لبعضهم أن يصفه ـ وعن جدارة ـ بأنه من بيت علم وفضل[8]. وقد أخذ عن بعض أفراد أسرته ممن اشتهر بالعلم من أسلافه في القيروان مثل جده الأدنى الشيخ عبد الجليل[9].

ثم انتقل الشيخ ابن عظوم إلى تونس لاستكمال طلبه العلم حيث أخذ عن مشايخها ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد العيسى. وأقام الشيخ بتونس سنين عديدة، ثم عاد إلى القيروان التي لم يمكث بها كثيراً حتى توجه نحو تونس ثانية وولي الإفتاء فيها وكان الشيخ جيد القريحة حيث انتفع به خلق كثير[10].

وكان الشيخ، رحمه الله، جم التواضع والوقار، ذا خلق عال ونفس سامية، زاهداً بالدنيا حيث إنه مع كثرة عياله وشدة فقره وحاجته يرفض ما يعرض عليه من الدراهم فيما يفتيه ويمتنع عن أخذها إلا القدر الذي يكفيه ليومه. وكان بحق عالماً عاملاً كما وصفه محمد مخلوف في شجرته[11].

أسرته العلمية:

اشتهرت أسرة الشيخ ابن عظوم بالعلم وقدَّمت للقيروان خصوصاً ولتونس عموماً طبقات من الفقهاء. وكان من أشهرهم الجد الأعلى محمد بن أحمد بن عيسى المعروف بأبي عبد اللّه ابن عظوم. وعلى الرغم من كثرة مصنفاته وذيوعها فإن المصادر لا تسعفنا عنه بشيء، وغاية ما نعرفه عنه مستفاد من مؤلفاته التي تزيد عن ستة عشر كتاباً[12].

---

(8) شجرة النور الزكية 1/ 299 وينظر كذلك ذيل بشائر أهل الإيمان ص184 وتراجم خليل لعظوم والطرق التقريبية للفقه ص106 ـ 107.

(9) الكتاني/ تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان ص25 ـ 26.

(10) المرجع نفسه.

(11) شجرة النور الزكية 1/ 299 وينظر كذلك ذيل بشائر أهل الإيمان ص184 وتراجم خليل عظوم والطرق التقريبية للفقه ص106 ـ 107.

(12) ينظر كتاب العمر ص799 وما بعدها.

وكذلك من أسرته العلمية الجد الأدنى الشيخ عبد الجليل بن محمد بن أحمد المتوفى سنة 960هـ؛ الذي كان له من المصنفات في العلوم الشرعية العدد الوافر[13].

وأيضاً كان والده محمد مرزوق من أهل العلم والإفتاء. ويذكر الجودي في كتابه تاريخ قضاة القيروان أن محمد مرزوق أبا الشيخ كان قد تولى القضاء بالقيروان، ويستند في ذلك على رسم يصف محمداً هذا بـ«الشيخ الفقيه الإمام القاضي المفتي الأعدل الأكمل. . . محمد مرزوق»[14].

كما هو الحال لأخيه الشيخ عبد الجليل محمد مرزوق الذي كان أيضاً مفتياً وقاضياً في بلده القيروان، ولعبد الجليل هذا ابنان تولى كل منهما خطة الإشهاد، وهما: تاج الدين الذي تولى الإفتاء بالقيروان، وأخوه الناصر الذي تولى القضاء بسوسة[15].

ومن إخوته الذين اشتهروا بالعلم والمعرفة أخوه لأبيه أبو مهدي عيسى بن عظوم رحمه الله، وأخوه مسعود بن عظوم رحمه الله، الذي تولى خطة الإشهاد كذلك.

ولم يقتصر تولي المناصب الشرعية على إخوته وأبنائهم، بل نجد لابن عظوم ابنين قد كان لهما نصيب في المشاركة، فقد تولى ابنه سعد الدين خطة الإشهاد، وكان لابنه سيف الدين مشاركة بارزة في العلوم[16].

وكما أخذ أبو القاسم العلم من عائلة أبيه فقد أخذه أيضاً من عائلة أمه التي كان منها الشيخ حسن اللبني خاله، وابن خاله الشيخ الفقيه عباس بن حسن اللبني وغيرهما، وخلاصة القول إن أبا القاسم نشأ في محيط عائلي يغلب عليه الطابع العلمي والاشتغال بالمعرفة؛ فحق أن يوصف بيت آل عظوم بأنه بيت علم وفضل، ومما يؤكد ذلك المثل الشعبي العامي السائد في البلاد التونسية وهو قولهم:

---

(13) ينظر تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان ص23 ـ 24، وكتاب العمر ص524 ـ 526.

(14) نقلاً عن أوضاع إيالة تونس العثمانية ص6.

(15) المرجع نفسه.

(16) ينظر أوضاع أيالة تونس العثمانية ص7 ـ 8.

«القاضي عظومي والمفتي عظومي وأنت لا شكون تشكي ياشومي» والذي كان يضرب لمن وجد نفسه في وضع ميؤوس منه نتيجة تألب وقع ضده[17].

شيوخه:

في الحقيقة إن المصادر التي ترجمت لابن عظوم لم تذكر شيئاً ذا بال عن ابن عظوم وأطوار حياته ولا عن شيوخه وتلاميذه وغير ذلك، كما أن ابن عظوم نفسه لم يهتم بمثل هذا في مصنفاته كعادة بعض العلماء، ولذلك تجدنا نستنطق نصوص البرنامج ـ الذي نحن بصدد التعريف به ـ لنعرف شيوخه وغير ذلك، كما نحاول أن نعي كل حرف من حروف تلك التراجم التي احتوتها بعض الكتب، التي ترجمت لابن عظوم، والتي كانت عبارة عن إشارات عابرة لعلها تجدي نفعاً.

فما ذكره صاحب تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان أن ابن عظوم قد أخذ عن بعض أسلافه بالقيروان[18]، ويقصد بذلك جده الأدنى الشيخ عبد الجليل بن محمد بن عيسى، صاحب تنبيه الأنام، المتوفى سنة 960هـ السابق الذكر، كما أخذ أيضاً عن الشيخ أبي مهدي عيسى بن عظوم أخيه لأبيه، ولا شك في أنه أخذ عن بعض مشايخ القيروان الآخرين، وبعد أن انتقل إلى تونس أخذ عن مشايخها منهم الشيخ أبو العباس أحمد العيسى التونسي الفقيه العلامة أحد الفضلاء الأعلام[19].

رحلاته:

يبدو لنا من خلال مطالعة ما كتب عن الشيخ ابن عظوم وما أثبته في بعض كتبه أنه سافر إلى تونس طلباً للعلم بها، ورغبة في الاستزادة على ما حصله في القيروان، حيث كانت عادة طلبة العلم بالبلاد التونسية. فكان ساكن أطراف

---

(17) ينظر شجرة النور 1/ 292 وأيضاً أوضاع إيالة تونس العثمانية ص7، وتكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان ص26.

(18) ينظر تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان ص26.

(19) ينظر شجرة النور 1/ 282 وتراجم خليل ص106، وأوضاع إيالة تونس العثمانية ص6.

البلاد يبدأ دراسته بمنطقة سكناه ثم يرحل إلى تونس لمواصلة ما ابتدأه في بلده واستكمال تحصيل العلم بها[20].

ثم بعد رحلته العلمية هذه عاد إلى القيروان ثم رحل مرة أخرى إلى تونس وذلك عندما قدم للفتيا بها عام 982هـ، وبقي يمارس هذه الخطة إلى جمادى الآخرة عام 1009هـ[21]. وبعدها رجع إلى القيروان حيث بقي على إقامته بها حتى الوفاة[22]. وكان السبب الرئيسي في رحلته الثانية إلى تونس وهو ما يظهر استجابه لقاعدة العرض والطلب في ميدان العلم، حيث كانت القيروان تزخر بالعلماء من الغراينة والعظاظمة وغيرهم، بينما كانت تونس تفتقر إلى أمثال ابن عظوم فانتقل إليها تلبية لذلك.

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه:

يتبين لنا من خلال ما سبق مكانة ابن عظوم بين أقرانه بتونس، حيث إنه اشتهر بينهم بالعلم والتقى، حتى إنه لشهرته بالعلم كانت تأتيه الاستفتاءات من أماكن متفرقة من داخل البلاد وخارجها، حيث كان يستفتيه الناس من عنابة والجزائر، وعرضت عليه أسئلة كثيرة من قسطنطينة وصفاقص وجربة، بل إننا نجد بعض الاستفتاءات من طرابلس نفسها وحتى من غريان. وكاند لشهرته بالعلم والفطنة والتدقيق، يعمد المستفتي إلى تحديده وتعيينه في طلب الجواب[23]. ولهذه المكانة التي حازها ابن عظوم بين أقرانه من فقهاء عصره كانت ترد عليه الأسئلة من طرف الباشاوات في أدق الأمور والمسائل الفقهية الشائكة[24].

وبالإضافة لما سبق اشتهر ابن عظوم بالصراحة والجرأة، فكان لا يخشى

---

(20) ينظر كتاب العمر ص815.

(21) ينظر أوضاع إيالة تونس العثمانية ص7 ـ 8.

(22) ينظر تكميل الصلحاء والأعيان ص26.

(23) ينظر أوضاع إيالة تونس العثمانية ص11، ويقصد بطرابلس أي طرابلس الغرب، وغريان أيضاً إحدى المدن الليبية.

(24) المرجع السابق ص12.

في الله لومة لائم. ومما يثبت ذلك نعيه على القضاة إهمالهم وحبهم للدنيا والتزلف طلباً للترف والنعيم، كما أنه قد وصفه من أتى على ذكره بالحفظ والإتقان. وقد وصفه حسين الخوجة بأنه «شيخ الفقهاء بعد ابن عرفة في تونس ومن هذه المكانة صارت كتبه معتمد الفتوى في تونس، بالنسبة للمذهبين: المالكي والحنفي، وكان علماء عصره عيالاً عليه»[25] كما وصفه الكناني: «بأنه فحل المغرب في العلوم الفقهية، وكان محققاً للفتيا والنوازل...»[26] أما محمد مخلوف فقد أثنى عليه بقوله: «... من بيت علم وفضل الفقيه المطلع المحقق للفتيا والنوازل القدوة العمدة الفاضل العالم العامل»[27].

ويقول أحمد قاسم فيه: «توحي كثرة المراجع التي اعتمدها في مؤلفاته بالطمأنينة للمؤلف، وبأن الرجل متمكن من مادته؛ ولهذا لا غرابة أن اعتمده الناس واستفتوه في قضاياهم»[28].

العوامل التي ساعدت على نبوغه:

لقد ساعد على نبوغ الشيخ أبي القاسم عظوم عدة عوامل كونت منه شخصية فذة.

فنبوغ الشخص في عصره وتميزه عن أقرانه يتوقف على أمور ومؤثرات منها ما يكون خَلْقياً كالذكاء والمواهب، ومنها ما يكون مكتسباً يرجع إلى حسن استغلال المرء للظروف التي تحيط به، وسلامة توجيهه ومدى استعداده وقابليته للإفادة من ذكائه ومواهبه، وفي العوامل المكتسبة يبرز التنافس ويظهر التفاضل بين الأخوة والأقران.

وقد تضافرت عوامل ومؤثرات ساعدت على نبوغ الشيخ ابن عظوم وجعلته من بين أقرانه يحتل مكانة علمية مرموقة وتتمثل في الآتي:

---

(25) ذيل بشائر أهل الإيمان ص33 ـ 34.

(26) تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان ص25.

(27) شجرة النور 1/ 292.

(28) أوضاع إيالة تونس العثمانية ص11.

1 ـ بيئته الخاصة:

البيئة الخاصة أكثر تأثيراً على الإنسان من البيئة العامة، فإذا انطبع الإنسان من الصغر بطابع خاص يتأصل فيه ولا ينفك عنه في جميع مراحل حياته، وهذا ما بينه الرسول ﷺ في حديثه: «**ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[29] فالطفل يرث من أسلافه السيرة الحميدة والسلوك القويم والأخلاق الطيبة.

والبيئة التي نشأ فيها ابن عظوم بيئة على جانب كبير من العلم والصلاح، وقد اتضح لنا ذلك عند حديثنا عن أسرته العلمية سابقاً.

وباختصار فإنه عاش في كنف محيط عائلي غلبت عليه الكتب والأوراق والاشتغال بالمعرفة، حتى إنه حق لبعضهم أن يصفه بأنه من بيت علم وفضل[30] فابن عظوم تربى منذ الصغر على حب العلم والتفاني من أجل طلبه، كما كانت له فرصة الإفادة من عائلة أبيه فقد أخذ عن عائلة أمه كما سبق البيان.

2 ـ رحلته إلى تونس:

حيث أخذ عن كبار العلماء هناك، أضف إلى ذلك فراغ البال من كل شيء إلا من طلب العلم، وذلك أن السفر لطلب العلم يجعل الإنسان يتفرغ تماماً لذلك، حيث ينقطع عن بيئته الأولى وما قد يكون بها من مشاغل تجعله ينفق الوقت فيما لا يغني ولا يسمن.

3 ـ هبة الله له:

فلقد وهب الله سبحانه وتعالى لابن عظوم الذكاء المفرط والحافظة القوية، وكذلك الصبر على كثرة الجلوس للعلم والمطالعة، وطول السهر لطلب العلم والتحصيل[31].

---

(29) أخرجه البخاري في الجنائز من حديث أبي هريرة باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه 2/ 118.

(30) ينظر شجرة النور 1/ 292.

(31) ينظر أوضاع إيالة تونس العثمانية ص11 ـ 12.

4 ـ حسن استغلال الوقت:

أحسن ابن عظوم استغلاله للوقت، فقد كان لا يفتر عن المطالعة والدراسة أو التصنيف، ومع كثرة عياله وتوليه مهمة الإفتاء، فإنه لم ينصرف عن وضع المصنفات لكثرة اطلاعه وسعة أفقه وحسن استغلاله لوقته.

5 ـ الوظائف التي تولاها:

مما جعله ينبغ وترتفع مكانته بين أقرانه مجموعة الوظائف التي تولاها، فقد اشتغل بالتدريس ثم بالإفتاء، وبعد ذلك تولى القضاء، فمن شأن هذه الوظائف أن تتسع معها المدارك.

تلاميذه:

إن اشتغال ابن عظوم بالفتيا والقضاء والتصنيف للكتب لم يكن مانعاً من أن يقوم ـ بالإضافة إلى كل هذا ـ بالتدريس، غير أن المصادر التي ترجمت له قد قصرت في ذكر هذا الجانب.

وبعد البحث والدرس الطويل استطعت أن أتوصل إلى معرفة بعض من أخذ عنه، غير أن هذا غير شاف، ولسوء الحظ فلم تسعفني المراجع التي تحت يدي إلا إلى التعرف على النفر القليل من تلاميذه، ويتمثل ذلك في ابنيه وابن أخيه.

1 ـ الشيخ سيف الدين بن أبي القاسم بن محمد بن عظوم الذي كان من أكابر العلماء، وله مشاركة في العلوم حيث إنه استفاد كثيراً من والده، وأخذ عنه علم التوثيق، كما أخذ عن غيره من جماعة علماء عصره، وتولى سيف الدين الإفتاء بعد أن صار أهلاً لذلك[32].

2 ـ الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عظوم الذي تخرج على والده في النوازل، وتولى القضاء بالقيروان ثم صار مفتياً بها[33].

---

(32) ينظر أوضاع إيالة تونس العثمانية ص6 ـ 7 وتكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان ص77.

(33) ينظر تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان ص78.

3 ـ الناصر عبد الجليل بن عظوم الذي أخذ عن عمه أبي القاسم بن عظوم وغيره من العلماء وكان من الفقهاء المرموقين في العلم والدراية[34].

أولاده وأحفاده:

سبقت الإشارة إلى بعض أبنائه الذين تتلمذوا عليه ويمكن إجمال ما توصلت إليه من معرفة بأولاده وأحفاده فيما يلي:

1 ـ الشيخ سيف الدين بن أبي القاسم بن محمد بن عظوم.

2 ـ الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عظوم.

3 ـ سعد الدين بن أبي القاسم بن محمد بن عظوم.

هذا كل ما يمكن قوله في هذا المقام ولعل القصور واضح ولكن هذا ما أسعفتنا به المصادر والمراجع المتاحة.

فنعلم مما سبق بأن أبا القاسم كان له ثلاثة أبناء ولكن لا نقطع بعدم وجود غيرهم، وكذلك لا وجود لذكر أحفاده في المصادر والمراجع، ولكن أيضاً لا نقطع بعدم وجودهم.

آثاره العلمية:

لابن عظوم نشاط علمي كثيف فقد وضع مصنفات، وتعد مصنفاته من أهم وأشهر الكتب التي صنفت في عصره[35] بالبلاد التونسية، وأهم هذه المصنفات التي استطعت معرفتها والوقوف عليها مع شيء عنها هي كالآتي:

1 ـ برنامج الشوارد لاستخراج مسائل الشامل: وسنأتي على دراسته بالتفصيل لاحقاً.

---

(34) المصدر نفسه.

(35) ينظر ذيل بشائر أهل الإيمان ص52.

2 ـ الأجوبة: وتضاف بالنسبة إلى مؤلفها في المصادر، حيث تسمى بـ«الأجوبة العظومية» أو «أجوبة ابن عظوم» ذكر الكناني: أنها في اثني عشر جزءاً[36] بينما يقول مخلوف: إنها في ثلاثين جزءاً[37] وهي عبارة عن مسائل فقهية أثيرت بواسطة سؤال وُجِّه من طرف مسترشد لأحد العلماء. وطريقة الشيخ هي إثبات السؤال ثم الجواب، ويختم المسألة ببيان رأيه في القضية، وفي بعض الأحيان يكون السؤال موجهاً إلى المؤلف نفسه[38]، وتوجد منه عدة أجزاء في مكتبة دار الكتب الوطنية بتونس وغيرها[39].

3 ـ برنامج وثائق الفشتالي: يقول في أوله: «ذكر برنامج هذا الكتاب لتراجمه ومهمات بعض مسائله مرشوماً عليها مواضعها؛ ليسهل استخراج ذلك على مطالعه». وتوجد منه مجموعة نسخ بتونس[40].

4 ـ نعوت المشهود عليه التي يعتمدها الشاهد في شهادته: حيث قال فيه بعد الافتتاح: وبعد، فنعوت المشهود عليه التي يعتبرها الشاهد في شهادته عليه منحصرة في مسائل بحسب غرضه في هذه العجالة، وقد حرر فيها مسألة معرفة عين المشهود عليه وبسط فيها القول. وتوجد منه نسخ في مكتبة دار الكتب الوطنية بتونس والمكتبة العاشورية ومكتبة الشاذلي النيفر[41].

5 ـ الإعلام بما أغفله العوام: وصف في فهرس الخزانة العامة بالرباط بأن المؤلف تكلم فيه على الجزية وبعض أحكام أهل الذمة، وذكره المؤلف

---

(36) ينظر تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان ص25.

(37) شجرة النور 1/ 292.

(38) ذيل بشائر أهل الإيمان ص54.

(39) كتاب العمر ص817.

(40) المرجع نفسه، وينظر كذلك تراجم خليل لعظوم ص108، وتكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان ص25. ومرشوماً: أي مكتوباً.

(41) كتاب العمر ص817، وتراجم خليل لعظوم ص108.

في فهرس المصنفات باسم حكم أهل الذمة في الإسلام. توجد منه نسخة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (1 ـ 664د)[42].

6 ـ عقيدة في التوحيد: وذكرها صاحب تكميل الصلحاء بأنها رسالة في المعرفة والتعريف[43].

7 ـ مناهل الورود وبحث القضاء بموجب الجحود: ويسمى أيضاً برفع الغيب بالإسفار في عدم قبول المخرج بعد الإنكار. وتوجد منه نسخ بمكتبة دار الكتب الوطنية بتونس[44].

8 ـ الأدلة المحكمة المجازة في افتقار التبرعات إلى القبول مع الحيازة: وتوجد منه نسخ بمكتبة دار الكتب الوطنية بتونس[45].

9 ـ برنامج مختصر خليل ابن إسحاق: وهو عبارة عن تبويب لمسائل مختصر خليل في الفقه وتوجد منه نسخ بدار الكتب الوطنية بتونس. وقد قام الشيخ محمد الشاذلي النيفر بنشره في النشرة العلمية للكلية الزيتونية العدد الأول، ص97 ـ 168[46].

10 ـ شرح على منظومته في الفرق بين النعت والبيان والبدل: ومحتواه واضح من خلال عنوانه. وتوجد منه نسخة بالقيروان في مكتبة ابن عظوم[47].

11 ـ برنامج الجزء الأخير من مختصر ابن عرفة. ولم تشر المصادر إلى هذا البرنامج، ولكن ذكره ابن عظوم في طيات كتابه برنامج الشوارد[48]

هذا وينبغي الإشارة إلى أن هذه القائمة لا تمثل كل مصنفات ابن عظوم بشكل الحصر القطعي، ولكن هذا ما أتيح الاطلاع عليه من خلال المصادر

---

(42) كتاب العمر ص818.

(43) المرجع نفسه وتكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان ص25.

(44) كتاب العمر ص818.

(45) المرجع نفسه.

(46) المرجع نفسه وتكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان ص25.

(47) كتاب العمر ص818.

(48) برنامج الشوارد 1/ 32 ـ 33.

والمراجع المتوفرة، فلعل له من المصنفات ما لم نقف عليه في هذه الدراسة المتواضعة.

وفـاتــه:

اختلفت المصادر في تحديد تاريخ وفاته، حيث نجد أن بعضهم يشير إلى أنه كان حياً سنة 1009هـ[49] وذلك لوجود فتاوي له بهذا التاريخ. وذهب الدكتور أحمد قاسم إلى أن وفاة ابن عظوم حسب المظنون في بحر عام 1009هـ[50]. وذلك لأن آخر فتوى له كانت في هذا العام، والموت أو مرض الموت هو الذي حال بينه وبين الإفتاء.

أما الشيخ محمد الشاذلي النيفر فقد قال: بعد البحث الطويل تمكنت من الوقوف على تاريخ وفاته، وأنها سنة 1013هـ[51] ولكنه لم يشر إلى مصدر ما يقول أو أدلته على ذلك.

أما الأستاذ العماري علي الضبع فإنه قد غلب على ظنه أن الوفاة كانت سنة 1013هـ، معتمداً فيما يقول على أن هذا التاريخ هو الذي أصيبت فيه تونس بوباء الطاعون ـ عافانا الله وإياكم منه ـ فلعل ابن عظوم وهو المتقدم في السن ضمن وفيات هذا الوباء[52].

وبعد عرض هذه الأقوال عن تحديد تاريخ وفاة الشيخ ابن عظوم تجدني أقول: ليس هناك ما يفصل به القول في هذه المسألة، وكل ما هو موجود عبارة عن اجتهادات تقريبية لتحديد زمن وفاته.

وبذلك نصل إلى أن غاية ما يمكن قوله: إن تاريخ وفاته ينحصر بين عامي

---

(49) ينظر ذيل بشائر أهل الإيمان ص24، وتراجم خليل لعظوم ص107.

(50) ينظر أوضاع إيالة تونس العثمانية ص13.

(51) تراجم خليل لعظوم ص107، وفي المطبوعة تحرف إلى (1103هـ) كما أشير إلى ذلك في كتاب العمر ص816.

(52) برنامج الشوارد تحقيق العماري الضبع 1/ 33.

1009 ـ 1011هـ وهذا ما ذهب إليه صاحب كتاب العمر عندما قال: «إن تاريخ وفاته لا يعرف إلا أنه يمكننا أن نحددها بين جمادى الثانية سنة 1009هـ ورجب سنة 1011هـ وبنينا هذا الرأي اعتماداً على ما وصلنا من فتاويه التي تنتهي عند جمادى الثانية سنة 1009هـ، وعلى ما جاء في خاتمة نسخة كتاب «تذكير الغافل وتعليم الجاهل» المعروف بالدّكانة الذي نعت فيه ابن عظوم بعد ذكره بـ رحمه الله تعالى، وهذه الخاتمة مؤرخة برجب 1011هـ على يد كاتبها محمد الصغير بن أبي القاسم بن عظوم[53].

ونحن نؤكد هذا بأن الوفاة قد كانت بين 1009هـ و1011هـ. لا كما رأى الشيخ محمد الشاذلي النيفر، وأيده الأستاذ العماري علي الضبع بأن الوفاة كانت عام 1013هـ.

المبحث الثاني
التعريف بكتابه برنامج الشوارد

وسأحاول التركيز فيه على النقاط التالية:

اسم الكتاب ـ نسبته إلى المؤلف ـ تاريخ تأليفه ـ الغرض من تأليفه ـ أسلوبه ـ منهجه ـ محتوياته ـ مصادره ـ قيمته العلمية ـ مزايا الكتاب ـ المآخذ التي تؤخذ على الكتاب.

اسم الكتاب:

عرف الكتاب بهذا الاسم «برنامج الشوارد على كتاب الشامل». نص على ذلك المؤلف في مقدمة الكتاب، وذكره كل من ترجم له في مؤلفاته بهذا العنوان. انظر على سبيل المثال: ذيل بشائر أهل الإيمان، ص54، 185، وتكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان، ص25، وشجرة النور الزكية 1/ 292، وتراجم خليل لعظوم ص108، وكتاب العمر ص816 وأوضاع إيالة تونس

(53) ينظر كتاب العمر ص815 ـ 816.

العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم ص8، ومعجم المؤلفين 8/ 124، وتراجم المؤلفين التونسيين 3/ 403.

وأرى أن هذه التراجم تتفق على تسمية الكتاب بهذا الاسم، وذلك ناتج عن حسم الموضوع على يد المؤلف عندما قال في المقدمة: وسميته لذلك برنامج الشوارد[54].

نسبته إلى المؤلف:

إن جميع الكتب التي ترجمت لابن عظوم تؤكد نسبة هذا الكتاب إليه، بل الأمر عندهم مسلم به. ولعل هذا كان مستنداًإلى وجود نسخة بخط المؤلف ـ وللأسف لم نعثر عليها ـ نقلت عنها النسخ الأخرى واستنسخت للمؤلف ابن عظوم والعنوان برنامج الشوارد. وقد يكون في النقاط التالية ما يدعم نسبته إلى مؤلفه:

أولاً: أنه بإثباتنا لعنوان الكتاب نكون قد قطعنا شوطاً في تحقيق نسبته إلى المؤلف، ويزيد ذلك وضوحاً أن الذين ترجموا له ينسبونه إليه ضمن مؤلفاته.

ثانياً: وجود اسم ابن عظوم على جميع النسخ المخطوطة لهذا الكتاب.

ثالثاً: إحالته على بعض كتبه كالأجوبة وبرنامج الجزء الأخير من مختصر ابن عرفة.

رابعاً: إحالاته الكثيرة على كتب جده الأعلى الشيخ أبي عبد اللّه محمد ابن أحمد بن عظوم، ويشير إليه بالجد الأعلى، كما يحيل إلى كتب جده الأدنى الشيخ عبد الجليل بن عظوم ويشير إليه بالجد الأدنى.

تاريخ تأليفه:

لقد أراحنا ابن عظوم ـ رحمه الله ـ من عناء البحث ومشقته عندما ذكر في مقدمة هذا الكتاب تاريخ تأليفه بقوله: «انتهى وضع برنامجي هذا في ليلة السبت

---

(54) برنامج الشوارد مخ 2/ 1.

غرة شهر شعبان المكرم من سنة 983هـ، ثم ألحقت فيه إلحاقات وتكميلات على فروع غريبة النقل والحكم، فانتهيت بانتهاء شهر ذي الحجة الحرام متمم شهور السنة المذكورة»[55].

الغرض من تأليفه:

أما عن الغرض من تأليف «برنامج الشوارد» فأقول: ذكر ابن عظوم ـ رحمه الله ـ في مقدمة كتابه هذا الغرض الذي قصده من وضع هذا الكتاب فقال: «وضعنا هذا البرنامج لاستخراج مسائل الشامل[56]، وحققت عزو ما تكرر فيه ذكره، ونبهت على ملمات غامضة في العزو، وعلى ما وقع من تشهير أو عمل أو فتوى بخلاف ما انفصل هو عليه، مقتصراً في الاستخراج على أصول المسائل ومهماتها وغريبها، وما كثر وقوعه منها دون استيعاب تتبع الجزئيات»[57].

ويتضح من نص ابن عظوم السابق أن غرضه من هذا التأليف كان خدمة كتاب الشامل، وذلك بتحقيق مسائله وترجيعها لمظانها الأصلية، وربط مسائله بالواقع، وبذلك يقدم الخدمة للباحث، ويعينه على الوصول إلى ما يطلبه، وييسر له السبيل للوصول إلى مظان المسائل في أمهات الفقه بتحديده مواضعها من تلك الكتب.

أسلوبه:

إن لكل علم من العلوم أسلوبه الخاص الذي يفارق غيره من أساليب

---

(55) برنامج الشوارد مخ 2/ 1.

(56) كتاب الشامل تأليف قاضي القضاة تاج الدين أبي البقاء بهرام بن عبد اللّه بن عبد العزيز بن عمر بن عوض بن عمر الدميري، الفقيه الإمام العلامة الفهامة المالكي المصري. وتجدر الإشارة إلى أنه توجد نسخة خطية من كتاب الشامل بمركز جهاد الليبيين تحت رقم 1153، كما أن هذا الكتاب تحت التحقيق كأطروحة دكتوراه بليبيا.

(57) برنامج الشوارد مخ 2/ 1.

العلوم الأخرى، ولكتب الفقه أسلوبها ولغتها الخاصة التي تميزها عما سواها، ولكن كتاب «برنامج الشوارد» له أسلوبه الخاص ولغته الخاصة.

فمن حيث العبارة يمكن القول إن عبارة ابن عظوم تقرب إلى المستخدم من الألفاظ المتداولة؛ إذ ابتعدت عن القوالب الفقهية المتبعة عادة.

ومن الملاحظ على أسلوب هذا الكتاب أنه يوجز القول في بعض الأحيان حتى تتحول عباراته إلى طلاسم وألغاز، وخاصة لمن يفتقر إلى معرفة أساليب كتب الفقه، ولم تكن عنده الإحاطة بموضوعاتها. وكأن المؤلف يعتقد أن القارئ ملم بكل ما يتعلق بموضوع حديثه.

كما أنه يستخدم بعض المصطلحات الخاصة به مما لم يرد استخدامه عند غيره من المصنفين مثل: «الفعل الصناعي» وغيره، وإشكالية استخدامه هذه المصطلحات عدم توضيح مقصوده بها.

وهذا الإيجاز واستخدام المصطلحات غير المعروفة يجعل هذا الكتاب من العسير الإفادة منه للمبتدئين؛ لأن إدراك مراميه أمر عسير يتطلب جهداً وعناء كبيرين لغير المتخصصين؛ وبذلك يقصر نفعه وإمكانية الاستفادة الكاملة منه على الخواص دون عامة القراء.

غير أننا نجده في أحيان أخرى يسترسل في الحديث عند تناوله بعض المسائل الأخرى حتى يصبح قوله واضحاً جلياً وهو ما يمكن القارئ من إدراك مقاصده ومراميه، ويعي بذلك هذه المسائل ويتبين أمرها.

واتجاهه إلى الإجمال في كثير من الأحيان يجعل القارئ ينظر إليها وكأنها فهارس مفصلة لخلوها من الأحكام والتفريعات والمسائل المهمة.

منهجه:

لقد اتخذ الشيخ ابن عظوم ـ رحمه الله ـ في كتابه «برنامج الشوارد» منهجاً خاصاً لم يسبق إليه، بل يعتبر منهجه ابتداعاً من عنده في وضع هذا الكتاب، ويمكن تلخيص أهم سمات هذا المنهج في النقاط التالية:

1 ـ يبدأ ابن عظوم دراسته الموضوع بتحديده أهم الجزئيات التي لا يستغني

عنها في دراسة هذا الموضوع، ويكتفي بمجرد سردها في بعض الأحيان، ويفصّل القول فيها في أحيان أخرى.

2 ـ يقسم المسائل ويرتبها، بحيث يعرض ما يتطلبه طَرْق الموضوع ودراسته، ثم يأتي في الآخر ويضيف إلى الموضوع بعض المسائل معنوناً لها بـ«فوائد» يلحقها بمسائل الموضوع الذي طرحه، وقد يكون ذكره مثل هذا تعقيباً على الشامل حيث لم يتناولها أو استدراكاً على نفسه حيث إنه قد فاته ذكرها في موضعها المحدد لها.

3 ـ لا يكرر المسائل التي تكلم عنها من قبل، بل يحيل عليها سواء أكانت المسألة في نفس مباحث الكتاب أم كتاب آخر له أو لغيره من الفقهاء.

4 ـ الشيخ ـ رحمه الله ـ معروف بدقة النظر والتحرير لمحل النزاع في المسائل المختلف فيها بين الأئمة داخل المذهب، فهو إذا عرضت له مسألة خلافية يناقشها ويبين أقوال العلماء فيها، ثم يعرب عن رأيه صريحاً معنوناً له بقوله: «قلت» أو «به أقول» أو «وأنا أرى ذلك» وغيرها.

5 ـ استخراجه مسائل الشامل حيث يذكر المسائل، ولكنه لم يُحِطْ بها جميعاً، بل اقتصر على ما رآه أولى من غيره من أصول المسائل وما كثر وقوعه منها دون استيعاب تتبع الجزئيات، وفي هذا الاستخراج للمسائل يذكر مظانها من الكتاب نفسه، ويردف بذكر مظان المسألة في غيره من أمهات كتب الفقه المالكي، وغيرها مما له علاقة بالمسألة من كتب الحديث وأصول الفقه وغيرها.

6 ـ يتقيد بآراء شيوخه؛ ولذلك كان يكثر مطالعة كتب المذهب ودليلنا على هذا تعديده أماكن ذكر المسألة عند الفقهاء بتحديد موضعها من المصنف.

7 ـ تحاشيه في الغالب ذكر المسائل الافتراضية النظرية عند تحريره المسائل الفقهية وتركيزه على عرض المسائل التي لها علاقة مباشرة بالواقع المعيش.

8 ـ تحقيق المسائل وتوثيقها مع نسبتها إلى قائلها وذكر الأقوال المشهورة

ومذاهب العلماء فيها، وما عليه العمل والفتوى بتونس والقيروان عند إيراد تلك المسائل.

9 ـ يوثق النوازل عند ذكرها توثيقاً علمياً دقيقاً، وذلك بذكر أسماء السائلين، وتاريخ السؤال، وفتاوى الفقهاء وأجوبتهم في الغالب.

10 ـ التنويه بآراء الشيخ بهرام وطريقة فهمه بعض المسائل وذلك بقوله: «قال بهرام» أو «قال صاحب الشامل» أو «ذكر في الأصل» إلى غير ذلك مما يفيد الإشارة إليه.

11 ـ يتناول المسألة بطريقة الفقه المقارن في بعض الأحيان حيث يذكر بالتفصيل مذهب المالكية وآراءهم، ثم يردفه بذكر مذهب الأحناف والشافعية والحنابلة.

12 ـ ينبه إلى مراجعه، ويحيل القارئ على المصادر التي استعملها أو رجع إليها، وإذا نقل عبارة أشار إلى مواطن نقله، ويكثر من استعراض آراء الفقهاء السابقين، مبيناً المشهور من المذهب وما به العمل، وهذا ما جعل كتابته تزخر بذكر الأعلام أصحاب الأقوال والكتب التي يرجع إليها وبالنقول التي يستشهد بها، وهذه منهجية يجب أن تحتذى من الباحثين.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن عظوم يبين منهجه هذا في مقدمة الكتاب فلتراجع.

محتوياته:

إن هذا الكتاب قد احتوى على العديد من المسائل الفقهية المهمة مع تحديد مظانها من الكتب الفقهية المتخصصة. وكذلك ربط المؤلف مسائله بالواقع الحياتي المعيش جعله يحوي بعض القضايا والمعلومات التاريخية والاجتماعية وغير ذلك[58].

(58) ينظر أوضاع إيالة تونس العثمانية ص4.

وكان تناوله المسائل الفقهية مرتبة وفق الترتيب التقليدي للمباحث الفقهية: حيث قسم الكتاب إلى جزأين: الجزء الأول فقه العبادات؛ والجزء الثاني فقه المعاملات.

وقِسْم العبادات احتوى على مسائل الطهارة والصلاة، والصيام والحج والزكاة... وغيرها.

وقِسْم المعاملات احتوى على مسائل البيوع والرهن والشركة والهبة... وغيرها. وبذلك تمت تغطية جميع المباحث الفقهية مرتبة.

مصادره:

من خلال تفحص «برنامج الشوارد» يتضح لنا أن مؤلفه نهل من مصادر عديدة، حيث لا تكاد صفحة من صفحاته تخلو من إحالة على مصدر من المصادر المهمة التي اعتمد عليها. وتوحي كثرة المصادر هذه بالطمأنينة إلى المؤلف، وبأن الرجل متمكن من مادته[59].

ولو حاولت الاستمرار والتتبع في جمع هذه المصادر وعرضها لاحتجت إلى الإطالة، التي ربما تكون مملة، ولا تناسب المقام؛ ولهذا أكتفي بإلمامة موجزة بأهم المصادر التي اعتمدها، غير مبال بتقديم هذا أو ذاك وهي على النحو التالي:

1 ـ مختصر ابن عرفة.

2 ـ كبير ابن ناجي وصغيره، أي الشرح الكبير على تهذيب المدونة للبرادعي، ويعرف بالشتوى، وذكر بعضهم أن عنوانه «نهاية التحصيل وترك التعليل والتطويل». والشرح الصغير على تهذيب المدونة، ويعرف بالصيفي، وهو شرح موجز في سفرين[60].

3 ـ شرح الرسالة لابن ناجي. وهو شرح لرسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه، وهو مطبوع مع شرح الرسالة لزروق ومتداول.

---

(59) ينظر أوضاع إيالة تونس العثمانية ص11.

(60) ينظر كتاب العمر 778 ـ 779، وتراجم خليل لعظوم ص120 ـ 121.

4 ـ الحاوي للبرزلي. ويسمى جامع مسائل الأحكام مما نزل من القضايا بالمفتين والحكام.

5 ـ مختصر حلولو. أحمد بن عبد الرحمن حلولو الزليتني وهو اختصار لحاوي البرزلي.

6 ـ المدونة الكبرى. رواية سحنون بن سعيد القيرواني التنوخي.

7 ـ الجامع لابن سحنون.

8 ـ النوادر والزيادات. لأبي محمد عبد اللّه بن أبي زيد القيرواني وهو شرح على المدونة وتوجد منه نسخة خطية في تونس بدار الكتب الوطنية[61].

9 ـ الرسالة. لأبي محمد عبد اللّه بن أبي زيد القيرواني وهي متن فقهي جامع.

10 ـ التهذيب (تهذيب المدونة) لأبي سعيد البرادعي. قال ابن خلدون في مقدمته: «ولخص مدونة سحنون أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب..»[62].

11 ـ مختصر خليل. للإمام أبي محمد ضياء الدين خليل بن إسحاق وهو مختصر لجامع الأمهات لابن الحاجب.

12 ـ التوضيح. وهو شرح للعلامة خليل بن إسحاق على مختصر ابن الحاجب.

13 ـ الجامع لمسائل المدونة. لمحمد بن عبد اللّه بن يونس التميمي.

14 ـ التبصرة. (تبصرة اللخمي) لأبي الحسن علي بن محمد الربعي المعروف باللخمي.

15 ـ حاشية الوانوغي، على تهذيب البرادعي، لمحمد بن أحمد بن عثمان الوانوغي.

---

(61) ينظر كتاب العمر ص644، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان 2/ 141.

(62) المقدمة لابن خلدون ص807 والمحاضرات المغربيات ص79.

16 ـ القلشاني على الرسالة. ويسمى تحرير المقالة في شرح الرسالة.

17 ـ الطرر. لابن عات أحمد بن أبي محمد بن أحمد.

18 ـ المستخرجة، وهي العتبية. لأبي عبد اللّه محمد بن أحمد بن عبد العزيز القرطبي.

19 ـ الواضحة. لعبد الملك بن حبيب.

20 ـ المَوَّازية. لابن الموَّاز أبي عبد اللّه محمد بن إبراهيم الإسكندري.

21 ـ المبسوطة أو المبسوط. للقاضي إسماعيل بن إسحاق البغدادي.

22 ـ المنتقي. للإمام الباجي المالكي أبي سليمان بن خلف.

23 ـ التنبيهات. للقاضي عياض.

24 ـ وثائق ابن العطار. أبي عبد اللّه محمد بن أحمد.

25 ـ الاستغناء لخلف بن مسلمة بن عبد الغفور.

26 ـ التعليق. وهو تعليق على المدونة لأبي عبد اللّه محمد بن علي المازري.

27 ـ الأحكام. لأبي المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبي.

28 ـ الكافي لابن عبد البر. أبي عمر يوسف بن عبد اللّه.

29 ـ الفروق والقواعد. للإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس القرافي.

30 ـ أحكام القرافي ويسمى الأحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام.

31 ـ التبصرة. لابن فرحون برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن الحسن علي ابن فرحون المدني. ويسمى تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام.

32 ـ البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل. لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد المالكي القرطبي.

33 ـ المقدمات الممهدات. لابن رشد.

34 ـ نوازل ابن رشد. ويسمى الأجوبة والفتاوى والمسائل، وقد جمعها تلميذه محمد بن أبي الحسن بن الوزان[63].

35 ـ اختصار أجوبة ابن رشد. لإبراهيم بن الحسن بن علي بن عبد الرفيع الربعي.

36 ـ اختصار النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام، المعروف باسم المتيطية. لمحمد بن محمد بن هارون الكناني.

37 ـ مختصر ما ليس في المختصر. لابن شعبان وهو أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان.

38 ـ جامع الأمهات لابن الحاجب أبي عمر جمال الدين عثمان بن عمر.

وبعد هذه الرحلة مع بعض المصادر التي تعد من أمهات المذهب المالكي أرى من الكفاية ما قيل في هذا المقام.

كما تجدر الإشارة إلى أنه قد اعتمد على بعض مصنفات جده الأعلى، التي تمت الإشارة إليها في مبحث أسرته العلمية آنفاً. ولا تفوتني الإشارة إلى أنه اعتمد على العديد من المصنفات الأخرى التي لم يسع المقام لسردها خشية الإطالة. «وتوحي كثرة هذه المراجع التي اعتمد عليها بالطمأنينة للمؤلف، وبأن الرجل متمكن من مادته؛ ولهذا لا غرابة أن اعتمده الناس واستفتوه في قضاياهم...»[64].

قيمة برنامج الشوارد العلمية:

يجمع برنامج الشوارد كثيراً من المسائل الفقهية التي رويت عن الإمام مالك وأعلام مذهبه كابن القاسم وأشهب وابن الماجشون ومطرف وابن وهب وسحنون وأصبغ وغيرهم... كما يورد شيئاً من المأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم وقد أخذ عن أمهات المذهب كما سبق أن علمنا من خلال معرفة مصادره.

---

(63) ينظر مناهج كتب النوازل ص221.

(64) أوضاع إيالة تونس العثمانية ص11.

ومما يعطي لهذا الكتاب قيمة كبرى أن المؤلف عندما يورد المسائل التي اختلفت فيها آراء الفقهاء يحيل القارئ على المصادر بتحديده مواضع المسائل منها، ويستعرض آراء الفقهاء السابقين مبيناً المشهور من المذهب وما به العمل والفتوى، ومن أجل ذلك كانت كتابته تزخر بالأعلام أصحاب الأقوال، وبالكتب التي يرجع إليها، وبالنقول التي يستشهد بها.

ومما يزيد من أهمية الكتاب أن المؤلف كثيراً ما يرجح بين آراء الفقهاء، ويندر أن لا يشير إلى ما جرى به العمل من الأحكام. وهكذا يساعد المؤلف القارئ على التمييز بين الأقوال النادرة التي يأخذ بها العلماء من قضاة ومفتين.

كما أن تخريجه المسائل يضفي العمق في القيمة العلمية لهذا الكتاب حيث لا يخفى ما في تخريجه المسائل من إعانة للباحث للإحاطة بما في الكتاب ومعرفة مواضع المسائل في غيره من الأمهات. حيث إنه يوقف الباحث على باقي المسائل التي لا تعرف مظانها بإرشاده إليها، فيعتبر هذا الكتاب بحق دليلاً للباحث في الفقه بشكل عام، وفي الفقه المالكي بشكل خاص.

وقد يخطر بالبال أن هذه المصادر المذكورة أكثرها قلمية ـ أي مخطوطة ـ وعزيزة الوجود، فالفائدة كالمعدومة، حقاً يخطر هذا. ولكن نرد على ذلك بأن إثارة مسائل هذه الكتب تثير همم الباحثين حتى يبحثوا وينقبوا عنها، ويعملوا على تحقيقها أو تقديمها ونشرها لتعم الفائدة. ثم إن بعض الكتب التي يذكرها ابن عظوم مطبوعة، بل بعض منها محقق، والجزء الآخر المخطوط منها إلى يومنا هذا لعله يجد من يخرجه إلى النور.

وقد سلك هذا الكتاب طريقاً خاصاً، وقدم أسلوباً جديداً على غير منوال الطرق والأساليب المتعارف عليها قديمها وحديثها، وهذه الطريقة لها محاسنها ومعائبها بحسب ما هي عليه[65].

---

(65) ولعل بعض كتب الفقه المالكي تشير إلى ذلك، كالبيان والتحصيل من الكتب القديمة لابن رشد، والعدوي والدسوقي والدردير من الحديثين، ولكنها ليست بالكثرة مثل البرنامج وبالتنصيص على الجزء والصفحة.

ومن خلال ما سبق يتضح أن هذا الكتاب قد سلك طريقاً تقريبياً، وقدم أنموذجاً خاصاً للطريقة التقريبية للفقه، وكوَّن أسلوباً جديداً في اتجاه الفقه الواقعي، حيث كثيراً ما يربط بين الأحكام والمسائل والواقع المعيش.

وبالإضافة إلى هذا وذاك فقد حوى هذا الكتاب العديد من القضايا التاريخية والاجتماعية ما يجعله ذا قيمة كبيرة في التوثيق التاريخي. وبما أن المؤلف كان متصفاً بالأمانة والصدق ومن أهل الصدارة في علم التوثيق، فأقواله وآراؤه موضع تقدير وثقة. كما لا ينبغي لنا أن ننسى النزعة الاجتهادية لابن عظوم التي تظهر واضحة في هذا الكتاب، فهو يعلل ويختار ويؤصل ويقيس، وله عبارات تشعرك بذلك مثل «قلت» و«به أقول» و«أنا أرى ذلك»...

وهذا كله جعل برنامج الشوارد يشتهر في زمنه ويصير معتمد الفتوى في تونس بالنسبة للمذهبين: المالكي والحنفي، كما تثبت المصادر المختلفة[66].

مزايا الكتاب:

من أهم مزايا هذا الكتاب أنه نوع خاص من الابتكار وطريقة غير مسلوكة في التأليف الفقهي سابقاً فهي حَرِية بأن تُدْرس حتى تظهر مَجلوَّة في أتم صورة؛ كي نعرف مدى عناية السلف بعلم الفقه، حتى في العصور التي لا تبعد عنا كثيراً، وهي من عصور التقهقر العلمي في ربوع العالم الإسلامي قاطبة، ونعرف مع ذلك أن هذه العناية لم تكن مقصورة على الجمع والنقل عن الغير، كما هو موجود عند بعض العلماء كما صنع صاحب معين الحكام علاء الدين الطرابلسي في نسخه تبصرة ابن فرحون المدني المالكي، دون بذل عناء، بل هي عناية فيها إبراز للشخصية بما لا يُنْكر؛ لأن في وضعه هذا (البرنامج) أتى بطريقة متطورة لم يتبع فيها أحداً، ويصح أن ننعتها بأنها طريقة خاصة به؛ لأنها ذات خصائص غير موجودة في غيرها.

---

(66) ينظر ذيل بشائر أهل الإيمان ص54، 184، وتراجم خليل لعظوم ص109 ـ 112، وأوضاع إيالة تونس العثمانية ص9 وما بعدها.

وهي طريقة لتقريب المسالك الفقهية على الباحث؛ حتى لا يتيه في صحراء لا نهاية لها لكثرة تشعب المسائل وصعوبة استخراجها، ومحاولة هذا الفقيه وما أبداه تفكيره هدفت إلى استخراج المسائل وضم الشوارد بعضها إلى بعض؛ حتى تكون سهلة للمتناول يأخذ منها حيث شاء لا تصده مشقة، ولا يحول بينه وبين ما يريد تشتت مسائل مبعثرة[67].

وبذلك يستعين الباحث بمعرفة ما في الكتاب من مسائل، ويقف على باقي المسائل التي لا تعرف مظانّها في الكتاب نفسه أو في غيره من الكتب المتخصصة الأخرى. فالبرنامج ـ بحق ـ يعد دليلاً للباحث في الفقه الإسلامي.

ما يؤخذ على الكتاب ومؤلفه:

لما كان الخطأ لا يسلم منه أحد، فالمؤلف ـ كغيره من بني آدم ـ يحصل له الخطأ كما يحصل لكل البشر، وهذا الخطأ لا يضعف أبداً من مكانته العالية ومنزلته المرموقة إذا عُدَّ إلى جانب تلك الحسنات الوافرة وتتمثل هذه المآخذ في الآتي:

1 ـ عدم ذكر كل المسائل التي احتواها كتاب الشامل في البرنامج، بل اقتصر المؤلف على ما رآه أَوْلى من غيره وكم تكون الفائدة أجزل لو أتم استقصاءها حتى لا يظهر البرنامج في صورة بتْراء.

2 ـ الاستفادة من هذا الكتاب قاصرة على طائفة خاصة وهم الخواص الذين يعنون بتحرير المسائل والممارسون للفقه.

3 ـ ومما يؤخذ عليه أيضاً أنه لم يبرز المسائل بعناوين واضحة تعبر عما وراءها، بل اقتضب الكلام حتى إنه في بعض الأحيان لا يعبر عن المسألة إلا بما يشبه اللغز، ولا يخفى ما في الإيجاز الحاد من تعقيد.

4 ـ التكرار لبعض المسائل، وكذلك عدم وجود الترابط لتعابيره بعضها ببعض.

---

(67) ينظر تراجم خليل لعظوم ص97.

5 ـ عدم التردد في مخالفة بعض الفقهاء والتشنيع عليهم، إذا ظفر لأحدهم بخطأ، ومثال ذلك نعته بعضهم بقوله: «وأفتاه من لا يخاف الله...» ويذكر له أحمد قاسم تشنيعه على البعض بل تهجمه عليهم....[68].

الخاتمـة

بعد هذه الرحلة مع ابن عظوم القيرواني وكتابه «برنامج الشوارد» تجدني أقول بأن هذه الدراسة المتواضعة تدخل ضمن دوافع الحث على الاهتمام والتعريف بفقهاء المذهب المالكي وتراثهم الأصيل، خاصة وأن الاهتمام بالتراث هو اهتمام بالماضي فخر الحاضر ومبعث المستقبل الزاهر.

ولا أدَّعي بأن هذه الدراسة أعطيت حقها الكامل ولكن كفاها أنها فتحت الباب لمن يريد الولوج واستكمال ما بدأته وتصويب ما أخطأته.

والله أدعو أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه تعالى وأن ينفع به وأن يسدد الخطا، وأن لا يؤاخذني بما حصل من السهو والخطأ وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين.

أهم مصادر البحث

1 ـ **أوضاع إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم** ـ لأحمد قاسم. بحث مقدم لنيل شهادة التعمق في البحث بالجامعة التونسية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية 82 ـ 1983م رقم T 2918.

2 ـ **برنامج الشوارد**. لابن عظوم القيرواني تحقيق العماري الضبع الجزء الأول (قسم العبادات) رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية ـ جامعة الفاتح ـ كلية التربية عام 1988م.

3 ـ **برنامج الشوارد لابن عظوم القيرواني**. مخطوط دار الكتب الوطنية ـ تونس تحت رقم 3348.

(68) ينظر أوضاع إيالة تونس العثمانية ص12.

4 ـ **تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات** (ليبيا تونس صقلية) د. شوقي ضيف دار المعارف ـ 1992م.

5 ـ **تراجم خليل لعظوم والطرق التقريبية للفقه** ـ للشيخ الشاذلي النيفر. الجامعة التونسية ـ النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، السنة الأولى العدد الأول 1391هـ = 1972م.

6 ـ **تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان** ـ لمحمد بن صالح عيسى الكناني ـ تحقيق محمد العنابي ـ نشر المكتبة العتيقة ـ تونسي ط1/ 1970م.

7 ـ **الحلل السندسية في الأخبار التونسية** ـ لمحمد بن محمد الأندلسي السراج تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة ـ الدار التونسية للنشر 1970م ودار الغرب الإسلامي ـ بيروت لبنان ط1/ 1975م.

8 ـ **ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان** ـ لحسين خوجة ـ تحقيق وتقديم الطاهر المعموري ـ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس ـ 1975م.

9 ـ **الشامل** ـ لبهرام الدميري ـ مخطوط مركز جهاد الليبيين رقم (1153).

10 ـ **شجرة النور الزكية** ـ لمحمد مخلوف ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة مصر ـ ط1/ 1349هـ.

11 ـ **كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين** ـ تأليف حسن حسني عبد الوهاب ـ بيت الحكمة ـ تونس ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ لبنان 1990م.

12 ـ **معجم المؤلفين** ـ لعمر رضا كحالة ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ بلا.

13 ـ **المقدمة** ـ لابن خلدون ـ تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ـ دار النهضة ـ القاهرة ـ مصر/ بلا.